الرجل

المختار

عاش في العصور الماضية كثير من العظماء الذين تتابعت الأنباء بأوصافهم السماعية ، وأوصافهم المرسومة في الصور والتماثيل ، غير أننا لا نعرف أحداً من هؤلاء العظماء تمَّت صورته السماعية أو المنقولة كما تمَّت صورة محمد ﷺ من رواية أصحابه ومعاصريه ، فنحن نعرفه بالوصف خيراً من معرفتنا لبعض المُخَلَّدِين بصورهم وتماثيلهم التي نقلت عنهم نقل الحكاية المطابقة ، لأن هذه الصور والتماثيل قد تحكي للناظرين ملامح أصحابها ومعارفهم الظاهرة ، وقد تحكي للمتأملين شيئاً من طبائعهم التي تكشف صفاتهم ، إلا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتتابعة أوصاف النبي ﷺ في كل حالة من حالاته ، وكل لمحة من لمحاته : في صفاته وفي هيئته ، وفي شرابه وطعامه ، وصلاته وصيامه ، وسفره وإقامته ، وسكوته وكلامه ، لأن الذين وصفوه وأحبوه وأحبوا أن يقتدوا به فتحرَّجوا في وصفه كما يتحرَّج المرء في الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة ، فكانت أمانة الوصف هنا مزيجاً من العطف والتدين ، ونوعاً من اتباع السنن وقضاء الفروض لم يختلف الوصف مرة إلا كما تختلف نظرة الناظر إلى وجه واحد بين ساعة وأخرى . فيقول غير ما قال سابقاً ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين .

وخلاصة المحفوظ من الروايات المتواترة : أن النبي ﷺ كان مثلاً نادراً لجمال الرجولة العربية ، وكان كشأنه في جميع أخلاقه مستوفياً للصفة من جميع نواحيها ،

فرُبَّ رجل وسيم غير محبوب ، ورُبَّ رجل وسيم محبوب غير مهيب ، ورُبَّ رجل وسيم يحبه الناس ويهابونه وهو لا يحب الناس ، ولا يعطف عليهم ، ولا يبادلهم الولاء والوفاء . أما محمد ﷺ فقد استوفى صفات الوسامة والمحبة والمهابة والعطف على الناس فكان على ما يختاره من وصفوه وأحبوه ، وكان نعم من سمي بالمختار .

إذا نظر إليه الناظر رأي رجلاً أبيض اللون مُشْرِق ، عظيم الرأس ، واسع الجبين، مُسْتَرْسِل الشعر ، دقيق الحاجبين بينهما عِرْق يظهره الغضب ، واسع العينين في كُحْل ، أقنى الأنف (مرتفع أعلى الأنف مقوس وسطه) يظنه من لم يتأمله أشم العرنين (مرتفع قصبة الأنف) ، أسيل الخد (لين مستو أملس) واسع الفم ، غزير اللحية ، جميل العنق ، عريض الصدر ، واسع ما بين المنكبين (المَنْكِبُ : مُجْتَمَعُ رأْس العَضُد والكتف) ، ضخم الكراديس (المفاصل) ، طويل الذراعين واسع الكف ، وسط القامة ليس طويلاً ولا قصيراً ، وإلى الطول أقرب ، معتدل الخلق متماسك ، ليس بالبدين ولا وبالنحيل . (١)

وإذا أقبل يتحرك نظر إليه الناظر فرأى رجلاً يصفه الأقدمون بأنه " حي القلب " ويصفه المحدثون " بالحركة الحيوية " .

يمشي فكأنما ينحدر من جبل وينحط من منحدر ، ويرفع قدمه فيرفعها تقلعاً كأنما ينشط بجسمه كله ، ويلتفت فليلتفت كله ، ويشير فيشير بكفَّه كلها ، ويتحدث فيقارب يده اليمنى من اليسرى ويضرب بإبهام اليمنى وراحة اليسرى ، ويفتح الكلام بأشداقه(الشدق جانب الفم مما تحت الخد) ويختمه بأشداقه ، وربما حرَّك رأسه وعضَّ شفته في أثناء كلامه وهو على هذه الحركة الحية كثير الحياء : أشد حياة من العذراء ، نضاح

---

(1) راجع نص الأحاديث التي ذكرت تلك الصفات في التعليق الختامي .

المحيا (أي: كالخارج من الحمام بعد أن اغتسل)، إذا كره شيئاً عرف ذلك في وجهه وإذا تطلقت أساريره (خطوط الجَبْهة والوَجْه) وتبين رضاه. (١)

واقترن النشاط والحياء بالقوة في هذه البنية الجميلة فكان ﷺ يصْرَع الرجل القوي (٢) ويركب الفرس بدون سرج فيروِّضه على السير (٣) ويداعب من يحب بالمسابقة في العدو . قالت عائشة رضي الله عنها : " خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلْ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ فَقَالَ لِلنَّاسِ تَقَدَّمُوا فَتَقَدَّمُوا ثُمَّ قَالَ لِي تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ فَسَكَتَ عَنِّي حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَقَالَ لِلنَّاسِ تَقَدَّمُوا فَتَقَدَّمُوا ثُمَّ قَالَ تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ هَذِهِ بِتِلْكَ " [صحيح رواه أحمد] .

وهذا بعد أن قارب الستين . إنها لمسابقة تدل على قوة الروح فوق ما دلت عليه من قوة الأعضاء .

وتجلَّت سعة الخُلُق في علاقته بكل إنسان من خاصة أهله أو من عامة أصحابه. فَرَقَّ لين جِدِّه حتى عطف على كل حزن ، ورحم كل ضعف ، وامتزج بكل شعور .

---

(1) راجع نص الأحاديث التي ذكرت تلك الصفات في التعليق الختامي .

(2) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْبَطْحَاءِ، فَأَتَى عَلَيْهِ يَزِيدُ بْنُ رُكَانَةَ، أَوْ رُكَانَةُ بْنُ يَزِيدَ، وَمَعَهُ أَعْنُزٌ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: "يَا مُحَمَّدُ، هَلْ لَك أَنْ تُصَارِعَنِي"، قَالَ: "مَا تَسْبِقُنِي"، قَالَ: "شَاةٌ مِنْ غَنَمِي، فَصَارَعَهُ، فَصَرَعَهُ، فَأَخَذَ شَاةً، فَقَالَ رُكَانَةُ: هَلْ لَك فِي الْعَوْدِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ مِرَارًا، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَاَللَّهِ مَا وَضَعَ جَنْبِي أَحَدٌ إلَى الْأَرْضِ، وَمَا أَنْتَ بِالَّذِي تَصْرَعُنِي، يَعْنِي: فَأَسْلَمَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ غَنَمَهُ " [حديث ضعيف مرسل رواه أبو داود]

(3) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ اسْتَبْرَأَ الْخَبَرَ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا ثُمَّ قَالَ وَجَدْنَاهُ بَحْرًا أَوْ قَالَ إِنَّهُ لَبَحْرٌ " [متفق عليه]

عَنْ أَنَسٍ كَانَ ابْنٌ لأُمِّ سُلَيْمٍ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ كَانَ النَّبِىُّ ﷺ رُبَّمَا يُمَازِحُهُ إِذَا جَاءَ فَدَخَلَ يَوْمًا يُمَازِحُهُ فَوَجَدَهُ حَزِينًا فَقَال : " مَا لِى أَرَى أَبَا عُمَيْرٍ حَزِينًا؟ ". فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاتَ نُغَيْرُهُ الَّذِى كَانَ يَلْعَبُ بِهِ فَجَعَلَ يُنَادِيهِ : " يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ " [صحيح البيهقي]

وهذه قصة صغيره تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت إليها ، فالسيد يزور خادمه في بيته ، ويسأل أمه عن حزن أخيه ، ويواسيه في موت طائر ، ولا يزال يرحم ذكراه كلما رآه .

ومثل هذا : عطفه على الضعف البشري في رجل مثل عبد الله الخمَّار الذي لُقِّب بهذا اللقب لما اشتهر به من السُكْر والدُعَابة [1] فكان النبي ﷺ يَحده في الخمر ولا يتمالك أن يضحك منه . [2]

قبول للدعابة

وكان نعيمان بن عمرو أشهر الأنصار بالدعاية ، ولا يراه النبي ﷺ فيتمالك أن يبتسم وربما قصد النبي ﷺ ببعض هذه الدعابات لطمعه في حلمه وعلمه بموقع الفكاهة من نفسه : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان : " لو نحرتها فأكلناها ؟ فإنا قد اشتقنا إلى اللحم ، ويغرم النبي ﷺ حقها " فنحرها نعيمان ، وخرج الأعرابي فرأى راحلته فصاح :

---

(1) اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا ، وليس خمَّاراً كما زعم العقاد .

(2) نص الحديث : عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺكَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺقَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لا تَلْعَنُوهُ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ " [صحيح البخاري]

" واعقراه يا محمد ؟ .. " فخرج النبي ﷺ يسأل : " من فعل هذا ؟ " قالوا: " نعيمان " فأتبعه النبي ﷺ حتى وجده بدار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد ، فأشار إليه رجل ورفع صوته : " ما رأيته يا رسول الله " وهو يشير بأصبعه إلى حيث هو ، فأخرجه رسول الله ﷺ وقد تعفر وجهه بالتراب فقال: " ما حملك على ما صنعت ؟ " قال : " الذين دلوك عليَّ يا رسول الله هم الذين أمروني ! " فجعل رسول الله ﷺ يمسح عن وجهه التراب ويضحك ، ثم غرم ثمن الراحلة . (١)

ونعيمان هذا هو الذي باع عاملاً لأبي بكر الصديق وهو يعلم أن الخبر وصل إلى النبي ﷺ لا شك .

سافر أبو بكر إلى بصرى تاجراً ومعه نعيمان وسويط (الصحيح **سُوَيْبِط**) بن حرملة عماله على زاده ، فجاءه نعيمان ، وطلب إليه طعاماً فأباه عليه حتى يأتي أبو بكر ، فأقسم نعيمان ليغيظنه ، وذهب إلى قوم فقال لهم : " تشترون مني عبداً لي ؟ " قالوا : " نعم " قال : " إنه عبد له كلام ، وهو قائل لكم : لست بعبده . أنا رجل حر .. إلى أشباه ذلك . فإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدوا على عبدي .. " قالوا : " لا . بل نشتريه ولا ننظر في قوله " فاشتروه منه بعشر قلائص (جمع قلوص وهي الناقة الشابة) ثم أداهم إياه فوضعوا عمامته في عنقه ، ولم يحفلوا بقوله ، وجعلوا كلما قال لهم : " أنا حر ! إنه يتهزأ ولست أنا بعبده " سخروا منه وقالوا : بل عرفنا خبرك فدع عنك اللجاجة (الخصومة) .. فلما جاء أبو بكر سأل

---

(1) **هذا الحديث لا يصح سنداً عن النبي ﷺ ، ولا يصح مَتْناً فقد اشتمل المتن على مخالفات دينية بيِّنه كاستباحة الصحابة أخذ ما ليس لهم بحق ، وترويع الآمنين ، والكذب ، ولقد حرَّم الإسلام الكذب وأكل أموال الناس بالباطل ، ونهى النبي ﷺ عن ترويع الآمنين حتى إن كان ذلك مزاحاً .**

عنه ، فقص عليه نعيمان قصته ، وذهبوا جميعاً ليحلقوا بالقوم فيفتدوه ويعيدوه " ثم قدموا على رسول الله ﷺ فضحك من فعلة نعيمان وجعل يذكرها حولاً كاملاً كلما رآه[1]

من سعة النفس أن يقوم الرجل بعظائم الأمور ، بل بأعظمها جِداً ووقاراً : وهو إقامة الأديان ، وإصلاح الأمم ، وتحويل مجرى التاريخ ثم يطيب نفساً للفكاهة، ويطيب عطفاً على المتفكهين ، ويشاركهم فيما يشغلهم من طرائف الفراغ. فللجِد شدة تشغل بعض النفوس فلا تتسع لهذا الجانب اللطيف من جوانب الحياة ، ولكن النفوس لا تستوعب هذا الاستيعاب إلا دلت على شيء من ضيق الخير ونقص المزايا وإن نهضت بالعظيم من الأعمال . فاستراحة محمد ﷺ إلى الفكاهة : هي مقياس تلك الآفاق النفسية الواسعة التي شملت كل ناحية من نواحي العاطفة الإنسانية وهي المقياس الذي يظهر من العظمة ما يظهره الجد في أعظم الأعمال [2]

وكان محمد ﷺ يمزح ، كما كان يستريح إلى الفكاهة والمزاح ، وكان عادته في ذلك كعادته في جميع مزاياه : يعطي كل مزية حقها ، ولا يأخذ لها من حق غيرها، أو يعطي الفكاهة حقها ، ولا ينقص بذلك من حق الصدق والمروءة . [3] فعبد الله

---

(1) خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ فِي تِجَارَةٍ إِلَى بُصْرَى قَبْلَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ بِعَامٍ وَمَعَهُ نُعَيْمَانُ وَسُوَيْبِطُ بْنُ حَرْمَلَةَ وَكَانَا شَهِدَا بَدْرًا وَكَانَ نُعَيْمَانُ عَلَى الزَّادِ وَكَانَ سُوَيْبِطُ رَجُلًا مَزَّاحًا فَقَالَ لِنُعَيْمَانَ أَطْعِمْنِي قَالَ حَتَّى يَجِيءَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ فَلَأُغِيظَنَّكَ قَالَ فَمَرُّوا بِقَوْمٍ فَقَالَ لَهُمْ سُوَيْبِطٌ تَشْتَرُونَ مِنِّي عَبْدًا لِي قَالُوا نَعَمْ قَالَ إِنَّهُ عَبْدٌ لَهُ كَلَامٌ وَهُوَ قَائِلٌ لَكُمْ إِنِّي حُرٌّ فَإِنْ كُنْتُمْ إِذَا قَالَ لَكُمْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ تَرَكْتُمُوهُ فَلا= =تُفْسِدُوا عَلَيَّ عَبْدِي قَالُوا لَا بَلْ نَشْتَرِيهِ مِنْكَ فَاشْتَرَوْهُ مِنْهُ بِعَشْرِ قَلَائِصَ ثُمَّ أَتَوْهُ فَوَضَعُوا فِي عُنُقِهِ عِمَامَةً أَوْ حَبْلًا فَقَالَ نُعَيْمَانُ إِنَّ هَذَا يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ وَإِنِّي حُرٌّ لَسْتُ بِعَبْدٍ فَقَالُوا قَدْ أَخْبَرَنَا خَبَرَكَ فَانْطَلَقُوا بِهِ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخْبَرُوهُ بِذَلِكَ قَالَ فَاتَّبَعَ الْقَوْمَ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ الْقَلَائِصَ وَأَخَذَ نُعَيْمَانَ قَالَ فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَخْبَرُوهُ قَالَ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنْهُ حَوْلا "[ضعيف ابن ماجه]

(2) كيف يبدي المزاح من العظمة ما يبديه الجد في أعظم الأعمال ؟!! وهل كان مزاح النبي ﷺ كما ذكره العقاد ، يبدي من عظمة النبي ﷺ ما يبديه الجد في أعظم الأعمال كتبليغ رسالة الله تعالى ، وأداء شعائره التعبدية والجهاد في سبيله ... ؟!!!

(3)عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ "إنّي وإنْ دَاعَبتكمْ فلا أقولُ إلاَّ حَقّاً" [صحيح الترمذي]

الخمَّار[1] كان يجد من قلب النبي ﷺ عطف القلب الكبير على عيب الضعف في الرجل السكير ، ولكنه كان يجد من تأديب النبي ﷺ جزاء الشارب الذي يخالف الدين عطف يجمل بالنبي ﷺ على أحسن ما يكون ، لأنه يجمل بالإنسان على أفضل ما يكون . [2]

وإذا مزح محمد ﷺ فإنما كان يعطي الرضى والبشاشة حقهما ، ولا يأخذ لهما من حق الصدق والمروءة ، فكان مزاحه آية من آيات النبوة ، لأنه كان كذلك آية من آيات الإنسانية ، ولم يكن بالنقيض الذي يستغرق من نبي كريم .

قال لعمته صفية : " لا تدخل الجنة عجوز ! فبكت فقال لها وهو يضحك : الله تعالى يقول : " إنا أنشأنهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً . عرباً أتراباً " ففهمت ما أراد وعادت إلى الرضا والرجاء . [3]

وطلب إليه بعضهم أن يحمله على بعير ، فوعده أن يحمله ولد الناقة ، فقال يا رسول الله ! ما أصنع بولد الناقة ! فقال : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ [4]

---

(1) الصحيح الحمَّار كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري كما ذكرنا من قبل .

(2) ثبت في صحيح البخاري : " أَنَّ رَجُلا كَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ وَكَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ حِمَارًا وَكَانَ يُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ وَكَانَ كُلَّمَا أُتِيَ بِهِ إِلَيْهِ جَلَدَهُ فَأُتِيَ بِهِ إِلَيْهِ مَرَّةً فَلَعَنَهُ رَجُلٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لا تَلْعَنْهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ " .

(3) أنَّ امرأةً عجوزًا (وليست عمته صفيه كما زعم العقاد) جاءتْهُ تقولُ لَهُ : يا رسولَ اللهِ ادع اللهَ لي أنْ يدْخِلَني الجنةَ فقال لَها : يا أمَّ فلانٍ إنَّ الجنَّةَ لا يدخلُها عجوزٌ وانزعجَتِ المرأةُ وبكَتْ ظنًّا منها أنها لن تدخلَ الجنةَ فلما رأى ذلِكَ منها بيَّنَ لها غرضَهُ أنَّ العجوزَ لَنْ تدخُلَ الجنَّةَ عجوزًا بل يُنشِئُها اللهُ خلقًا آخرَ فتدخلُها شابَّةً بكرًا وتَلا عليها قولَ اللهِ تعالى : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ " [حديث ضعيف مرسل]

(4) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلاً اسْتَحْمَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ " إِنِّى حَامِلُكَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ ". فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " وَهَلْ تَلِدُ الإِبِلَ إِلاَّ النُّوقُ ».[حديث صحيح رواه أبي داود والترمذي]

وكان ﷺ يقول لحاضنته السوداء أم أيمن وهي عجوز : " غَطِّي عَنَّا قِنَاعَكِ يَا أُمَّ أَيْمَن " [حديث ضعيف مرسل]

وسمعها في يوم حنين تنادي بلكنتها الأعجمية : " سبت الله أقدامكم ! " فلم تُنْسه الغزوة القائمة أن يصغي إليها ، ويداعبها ، بين نُذُر الحرب وأصوات السيوف ، وأقبل عليها يقول : " اسكتي يا أم أيمن فإنك عسراء اللسان ! " (1)

فكانت هذه الدعابة في ذلك الموقف المرهوب كأنها ملاطفة سيد الفصحاء على تلك اللَّكنة البريئة .

أريحية (سعة أخلاق) محمد ﷺ

هذه الأريحية الفيَّاضة هي الحلية الباطنة التي تمَّت بها حلية محمد ﷺ في عيون الناس ، وهي جواب محمد ﷺ لما كان له في قلوبهم من حب وإعظام ، أو هي الرابطة التي تجمع بين قلبه وتلك القلوب في نطاق الأسرة الإنسانية : يحبونه ويحبهم، ويشعرون به ويشعر بهم ، وليس غاية الأمر أنه وسيم وأنه محبوب وأنه مهيب . هيئة تقابل العيون بجمال ، وأريحية تقابل النفوس بجمال .

وقد سرت هذه الأريحية في داخل نفسه ، فامتزجت طواعية وارتجالاً بجميع خصاله وجميع علاقاته بالناس ولا سيما الضعفاء والمقهورين . فكان أحرص إنسان على جبر القلوب ، وتطبيب الخواطر ، وتقديم المؤاساة ، واجتناب الإساءة ، ويتفقد أصحابه كباراً وصغاراً ويسأل عنهم ، ويتحدث إلى أصحاب المكانة ، وعامة الناس ، فلا يحسب صغيرهم أن أحداً أكرم عليه منه ، ويتحدث إليه من شاء فلا يقطع عليه حديثه

---

(1) عَنْ أَبِي الْحُوَيْرِثِ ، أَنَّ أُمَّ أَيْمَنَ ، قَالَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ : سَبَّتَ اللَّهُ أَقْدَامَكُمْ ، فَقَالَ : فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اسْكُتِي يَا أُمَّ أَيْمَنَ فَإِنَّكِ عَسْرَاءُ اللِّسَانِ. " [رواه بن سعد ولم نقف له على تخريج]

وإن طال [1]. وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس [2] ومن جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف ، وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يكون الآخذة هو الذي يرسلها . [3]

ومن سننه التي اتبعها ، وأوصى باتباعها ، أن يجيب دعوة من دعاه ، ولا يرد دعوة عبد ولا خادم ولا أمة ولا فقير ، وفي ذلك يقول من وصاياه في آداب الولائم والمحافل:

---

(1)" كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْزُنُ لِسَانَهُ ، إِلاَّ مِمَّا يَعْنِيهِ ، وَيُؤَلِّفُهُمْ وَلاَ يُفَرِّقُهُمْ ، أَوْ قَالَ : يُنَفِّرُهُمْ ، وَيُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ ، وَيُوَلِّيهِ عَلَيْهِمْ ، وَيَحْذَرُ النَّاسَ ، وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِيَ عَنْ أَحَدٍ بِشْرَهُ وَلاَ خُلُقَهُ ، وَيَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ ، وَيَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ ، وَيُحَسِّنُ الْحَسَنَ وَيُقَوِّيهِ= =وَيُقَبِّحُ الْقَبِيحَ وَيُوهِنُهُ ، مُعْتَدِلَ الأَمْرِ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ ، لاَ يَغْفَلُ مَخَافَةَ أَنْ يَغْفُلُوا ، لِكُلِّ حَالٍ عِنْدَهُ عَتَادٌ ، لاَ يَقْصُرُ عَنِ الْحَقِّ وَلاَ يُجَاوِزُهُ ، الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ ، أَفْضَلُهُمْ عِنْدَهُ أَعَمُّهُمْ نَصِيحَةً ، وَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَحْسَنُهُمْ مُوَاسَاةً وَمُؤَازَرَةً .
قَالَ : فَسَأَلْتُهُ عَنْ مَجْلِسِهِ ؟ فَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دَائِمَ الْبِشْرِ ، سَهْلَ الْخُلُقِ ، لَيِّنَ الْجَانِبِ ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ ، وَلاَ صَخَّابٍ ، وَلاَ فَحَّاشٍ ، وَلاَ عَيَّابٍ ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لاَ يَشْتَهِي ، وَلاَ يُؤْيِسُ مِنْهُ رَاجِيهِ ، وَلاَ يُخَيِّبُ فِيهِ ، قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلاَثٍ : الْمِرَاءِ ، وَالإِكْثَارِ ، وَمِمَّا لاَ يَعْنِيهِ ، وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلاَثٍ : كَانَ لاَ يَذُمُّ أَحَدًا ، وَلاَ يُعَيِّرُهُ ، وَلاَ يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ إِلاَّ فِيمَا رَجَا ثَوَابَهُ إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ ، فَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا ، وَلاَ يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ الْحَدِيثَ ، مَنْ تَكَلَّمَ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّى يَفْرُغَ ، حَدِيثُهُمْ عِنْدَهُ حَدِيثُ أَوَّلِيَّتِهِمْ ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ ، وَيَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ ، وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الْجَفْوَةِ فِي مَنْطِقِهِ وَمَسْأَلَتِهِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَصْحَابُهُ لَيَسْتَجْلِبُونَهُمْ وَيَقُولُ : إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ حَاجَةٍ يَطْلُبُهَا فَارْفِدُوهُ ، وَلاَ يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إِلاَّ مِنْ مُكَافِئٍ ، وَلاَ يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَجُوزَ ، فَيَقْطَعُهُ بِنَهْيٍ ، أَوْ قِيَامٍ. " [من حديث هند بن أبي هالة . الذي رواه الترمذي وغيره وضعفه الألباني]
(2) عن جابر بن سَمُرَة قَالَ : كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ جلَسَ أحَدُنَا حَيْثُ يَنْتَهِي . [حديث صحيح رواه أَبُو داود والترمذي]
(3) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : " كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا اسْتَقْبَلَهُ الرَّجُلُ فَصَافَحَهُ لا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ يَنْزِعُ وَلا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَصْرِفُهُ وَلَمْ يُرَ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ " [ضعيف الترمذي]

" إِذَا اجْتَمَعَ الدَّاعِيَانِ فَأَجِبْ أَقْرَبَهُمَا بَابًا فَإِنَّ أَقْرَبَهُمَا بَابًا أَقْرَبُهُمَا جِوَارًا وَإِنْ سَبَقَ أَحَدُهُمَا فَأَجِبِ الَّذِي سَبَقَ " [حديث ضعيف رواه أحمد وغيره]

يبدأ من لقيه بالسلام [١] ويمر بالصبيان فيقرئهم سلامه [٢] وربما خفَّف صلاته إذا جاءه أحد وهو يصلي ليسأله عن حاجته ويلقاه بالتحية . [٣]

يتَّقي الغضب جهده ، ويعالجه إذا أحسه بعلاج من الروح ، فيقبل على الصلاة والتسبيح [٤] أو بعلاج من الجسد ، فيجلس إذا كان قائماً ، ويضطجع إذا كان جالساً [٥] ويأبى الحركة التي ينزع إليها وهو غضبان . [٦]

آدابه الاجتماعية

وكان في آدابه الاجتماعية قدوة الرجل المهذب في كل زمان ، فلم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه [٧] وتعود كلما زار أحداً ألا يقوم حتى يستأذنه [١] ولم يكن ينفخ

---

(1) حديث " كَانَ مِنْ خُلُقِهِ أَنْ يَبْدَأَ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلامِ [ضعيف الترمذي] .
(2) عن أنس " أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صبيَانٍ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وقال : كَانَ النبيُّ ﷺ يفعله " [متفقٌ عَلَيْهِ]
(3) لم يُذْكر في كتب الحديث تخفيف النبي الصلاة التي يريد إطالتها من أجل أحد إلا عند سماعه بكاء الصبي فعَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنِّى لأَدْخُلُ الصَّلاَةَ أُرِيدُ إِطَالَتِهَا ، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِىِّ ، فَأُخَفِّفُ مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ بِهِ " [متفق عليه] وربما قصد العقاد أمر النبي عموماً بتخفيف الصلاة رحمة بأصحاب الأعذار كما جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ إِنِّي لأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاَةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلاَنٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا قَالَ فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَطُّ أَشَدَّ غَضَبًا فِي مَوْعِظَةٍ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ قَالَ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ فَإِنَّ فِيهِمْ الْمَرِيضَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ " .
(4)" إذا غضب الرجل فقال : أعوذ بالله سكن غضبه " [صححه الألباني]
(5)"إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ، فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ " [حديث صحيح رواه أحمد وأبو داود]
(6)" وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ " [صححه الألباني]
(7) حديث "لم يُرَ قط ماداً رجليه بين أصحابه " [أخرجه الدارقطني وقال باطل]

في طعام ولا شراب ولا يتنفس في إناء [٢] وإذا أخذه العطاس وضع يده أو ثوبه على فيه (فَمِهِ) [٣] وربما نهض بالليل فيشوص [يدلك أسنانه وينقيها] فاه (فَمَهُ) بالسواك [٤] ولا يزال يستاك ويوصي بالاستياك بعد الطعام والتيقظ من النوم [٥] وكان يتطيب ويتحرَّى النظافة ويقول لأصحابه : " اغْتَسِلُوا يَوْمَ الجُمُعَةِ ولَوْ كأْساً بِدِينارٍ " [حديث موضوع] [٦]

---

(1) عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ:" إذا زار أحَدُكُم أخاه فَجَلَس عِنْدَهُ فلا يَقُومَنَّ حَتَّى يَسْتَأذِنَهُ " [صححه الألباني]

(2) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْفُخُ فِي طَعَامٍ وَلا شَرَابٍ وَلا يَتَنَفَّسُ فِي الإِنَاءِ" [حديث صحيح رواه أحمد وأبو داود والترمذي]

(3)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا عَطَسَ أَمْسَكَ يَدَهُ أَوْ ثَوْبَهُ عَلَى فِيهِ ثُمَّ خَفَضَ بِهَا صَوْتَهُ ».[صحيح الترمذي والبيهقي وأبو داود]

(4)عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَشُوصُ فَاهُ " [متفق عليه]

(5) وردت في السواك أحاديث كثيرة منها " أَنَسٌ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺأَكْثَرْتُ عَلَيْكُمْ فِي السِّوَاكِ " [رواه البخاري] وَقَالَتْ عَائِشَةُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺالسِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ " [البخاري] وعن عَائِشَةَ كذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَرْقُدُ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ فَيَسْتَيْقِظُ إِلَّا تَسَوَّكَ قَبْلَ أَنْ يَتَوَضَّأَ " [صحيح أبي داود] وعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺكَانَ لَا يَنَامُ إِلَّا وَالسِّوَاكُ عِنْدَهُ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ بَدَأَ بِالسِّوَاكِ [حسنه الألباني]

(6) ورد في الاغتسال والتطهر والنظافة آيات كريمة وأحاديث صحيحة كثيرة ، والعجيب أن يترك العقاد كل هذا ويستشهد على الاغتسال والنظافة والتطهر بحديث موضوع !!

يقول تعالى : " ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا ﴾ [النساء ٤٣]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ... يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة : ٦]

أما الأحاديث التي تأمر بالاغتسال فكثيرة وإن كان العقاد يستشهد على استحباب الاغتسال يوم الجمعة فهناك أيضا أحاديث كثيرة وصحيحة منها عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها ، قَالَت: كَانَ النَّاس ينتابون الْجُمُعَة من مَنَازِلهمْ ، فَيَأْتُونَ فِي العباء ، ويصيبهم الْغُبَار وَتخرج مِنْهُم الرّيح .فَقَالَ رَسُول=

وقد تختلف العادات الاجتماعية بين جيل وجيل في شئون عرضية لا تتصل بلباب والشعور ،فيأكلون في جيل بأصابع اليد ، ويأكلون في الجيل الآخر بالشوكة والسكين، ويخرج أناس بالثياب السود ويخرج غيرهم بالثياب البيض ، وهي أمور عارضة يقاس بها عرف البيئة ولا يقاس بها تهذيب الطباع فلا عيب على الناس أن تختلف عاداتهم باختلاف بيئاتهم من أمة لأمة ومن جيل لجيل ، وإنما العيب فيما يتناول الطبع السليم، والذوق الحسن ، وهما الخصلتان اللتان كان ﷺ قدوة فيهما لكل رجل مهذب في كل أمة وفي كل زمان ، فلم يكن يخطئ في حق أحد ، ولم يكن أحد يشكو من محضره بإنصاف ، وذلك هو أساس التهذيب الكامل في أصدق معانيه .

صاحب هذه الهيئة رسول .

وصاحب هذه الآداب رسول .

وخلاصة هيئته وآدابه : أنها سماحة في الانتظار ، وسماحة في القلوب ، فالسماحة، هي الكلمة الواحدة التي تجمع هذه الخصال من أطرافها ، والسماحة هي الصفة التي ترقَّت في محمد ﷺ إلى قمة الكمال . (١)

ومن يكون الرسول ﷺ إن كان لا بد من تعريف وجيز لعلامات الرسالة ؟ الرسول ﷺ : وهو الذي له وازع من نفسه في الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملات

=الله ﷺ: " لَو أَنكُمْ تطهرتم ليومكم هَذَا " [مُتَّفق عَلَيْهِ] وعَن ابْن عمر ، أَن رَسُول الله ﷺ قَالَ : " إِذا جَاءَ أحدكُم الْجُمُعَة فليغتسل " [مُتَّفق عَلَيْهِ]

وعن سَلمَان قَالَ : قَالَ رسول اللهِ ﷺ: " لاَ يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَومَ الجُمُعَةِ ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِن طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلاَ يُفَرِّقُ بَيْنَ اثنَيْنِ ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ ، إِلاَّ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى " [صحيح البخاري]

(1) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ سَمْحَ الْبَيْعِ سَمْحَ الشِّرَاءِ سَمْحَ الْقَضَاءِ " [صحيح الترمذي] وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ " [حديث صحيح رواه أحمد والطبراني والبيهقي]

الناس ، لأن عمل الرسول ﷺ الأول أن يقيم للناس وازعاً يأمرهم بالحسن، وينهاهم عن القبيح ويقرر لهم حدودهم التي لا يتخطونها فيما بينهم ، ومن كان هذا عمله الأول فينبغي أن تكون صفته الأولى – بل صفته الكبرى – أن يستغنى عن الدافع ، وأن يغني الناس عن محاسبته وطلب الحق منه ، وهذه هي الطبيعة الشاملة التي سرت في طبيعة محمد ﷺ وامتزجت بجميع أعماله وأقواله ، فلم يحاسبه أحد أبداً كما حاسب هو نفسه في رعاية حق الصغير والكبير ، وصيانة الحرمات للعاجز والقدير .

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أجدر منها بالقبول ، لأنها علامة من داخل النفس ، وليست علامة من خارجها قد تلازم أو تفارق من تصيبه .

وليس للنوع البشري مقياس صحيح يقاس به محمد ﷺ فيعطيه مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل .

يعطيه هذه المرتبة من يدين بالإسلام ، ومن يدين بغير الإسلام ومن ليس له دين من أديان التنزيل .

فليس للنوع البشري أصل من أصول الفضائل يهدف إلى مقصد أعلى وأشرف من تقديس تلك الصفات التي كان محمد ﷺ قدوة فيها للمقتدين .

عزيمة الزهد والإيمان

وليس أولى بالحب والتبجيل ممن يطلب خير الناس ويزهد في نعمة العيش وهي بين يديه .

فقد ثبت أن محمداً ﷺ لم يستمتع بدنياه ، ولم يشبع ثلاثة أيام تباعاً حتى مضى لسبيله [1] وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها : " لقد كنت أبكي رحمة له مما أرى

---

(1) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : " مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ بُرٍّ ثَلاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ " [متفق عليه] .

به وأمسح بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول : نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقوتك " فيقول : " يا عائشة ! مالي وللدنيا ، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا " (١)

وقالت زوجته أم سلمة تصف ما وجدته في بيته ليلة عرسها : " .. فإذا جرَّة فيها شيء من شعير ، وإذا رحى وبرمة وقدر وكعب ، فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته في البرمة ، وأخذت الكعب فأدمته ، فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه ! "

رآه عمر وقد أثر في جبينه حصير فقال له : " يا رسول الله ! قد أثر في جنبك رمل هذا الحصير ، وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله " فاستوى جالساً وقال: " أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا " (٢)

---

(1) حديث : " لقد كنت أبكي رحمة له ... " ذكره أبو حامد الغزالي في الإحياء ، وقال عنه الحافظ العراقي أخرجه أبو موسى المديني مطولاً في كتاب استحلاء الموت وأورد منه عياض في الشفاء . ولقد بحثت عنه في كتب الحديث ولم أقف له على سند ، وإن صح قول النبي في الزهد: " مالي وللدُّنيا إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا كمثل راكبٍ قَالَ(نام وقت القيلولة) في ظلِّ شجرةٍ ثم راحَ وتركها " [رواه الترمذي وأحمد وهو صحيح] وقوله " كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَو عَابِرُ سَبيلٍ" [رواه البخاري]

(2) نص الحديث كما جاء في صحيح مسلم ، عن عُمَرَ بْن الْخَطَّاب قال : دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِى جَنْبِهِ فَنَظَرْتُ بِبَصَرِى فِى خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِى نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ ، قَالَ ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَاىَ قَالَ " مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ".
قُلْتُ يَا نَبِىَّ اللَّهِ وَمَا لِى لاَ أَبْكِى وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِى جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لاَ أَرَى فِيهَا إِلاَّ مَا أَرَى وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِى الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ." فَقَالَ : " يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا ".

ولقد مات ودرعه مرهونة [1] ولا ميراث لأهله مما ترك من عقار، وهو قليل [2]

فما عسى أن نقول قائل في قَدْر هذا الرجل ، آمن به أو لم يؤمن ؟

أيقول : إنه رسول ، وأنه كان يعلم أنه رسول ، فبلَّغ أمر ربه واحتمل ما احتمل في سبيل طاعته ، وفي سبيل إصلاح خَلْقِه ؟ تلك إذن منزلة الأنبياء التي تستوجب له مقام أصفياء الله عند من يؤمن بالله ؟

أم ينكر النبوات ويقول : إنه رجل أراد الخير وهو لا يعلم أنه رسول ولا أن الله مطالبه برسالته إلى خَلْقِه ، ولكنه تجرَّد لهدايتهم في غير مقصد يناله ، ولا نعمة ينعم بها ، لأنه لا يطيق لهم شراً ، ولا ينتظر في الدنيا ولا الآخرة من جزاء ؟

من قال هذا وأخفى من قدر رجل يحب الناس ذلك الحب ، ويغار على هدايتهم تلك الغيرة فهو إنسان ممسوخ الضمير .

فمحمد ﷺ الرجل في المقام الأول بين الرجال : في المقام الأول بخِلْقَتِهِ ، وفي المقام الأول بنيته ، وفي المقام الأول بعمله ، وفي المقام الأول بالقياس إلى من يشبهونه في دعوته .

ونرى عن يقين أنه لم يَحْرِم نفسه ذلك الحرمان إلا استزادة لأسباب الإيمان ، وقوة للعزيمة في سبيل ذلك الإيمان ،وإعذاراً إلى الله وإلى الناس فيما تجرد له من إصلاح.

---

(1) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِير " [متفق عليه]

(2)عَنْ عَمْرِو بْنِ اَلْحَارِثِ- أَخِي جُوَيْرِيَةَ أُمِّ اَلْمُؤْمِنِينَ قَالَ: - مَا تَرَكَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا، وَلا دِينَارًا، وَلا عَبْدًا، وَلا أَمَةً، وَلا شَيْئًا، إلا بَغْلَتَهُ اَلْبَيْضَاءَ، وَسِلاحَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً" [صحيح اَلْبُخَارِيّ] وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَلاَ بَعِيرًا وَلاَ أَوْصَى بِشَيْءٍ. " [صحيح مُسْلِمٌ]

لأن محمد ﷺ لم يكن كارهاً لطيبات الدنيا ، ولا مرغباً أحداً في كراهتها والإعراض عنها . فإذا قنع بما قنع فعل ذلك ليرتفع بإيمانه عن ظنه هو لا عن ظنون غيره . كأنه يخشى إذا استكمل حظوظ النعيم الميسرة له أن يحسب تلك الحظوظ غرضاً من الأغراض التي نظر إليها حين نظر إلى هداية الناس . (١)

فليكن الإيمان إذن هو كل غرض وكل عمل وكل جزاء . وتلك راحة ضميره(٢) ومن وراء راحة ضميره أن يظفر الناس بجهده كله في هدايتهم غير منقوص ولا مظنون .

---

(1) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ ﴾ [سبأ: ٤٧] ، وقاله: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦] ، وقوله: ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [الشورى: ٢٣]

(2) كثير من الكتاب يستخدمون كلمة " الضمير " ويعنون بها : الإيمان أو التقوى أو مخافة الله ، وراحة الضمير تعني عندهم : طاعة الله ، وعمل ما ينبغي عليه أن يعمله مما يرضي الله تعالى ، والحقيقة أن كلمة الضمير في اللغة غير ذلك فهي لا تعني سوى : السِّرُّ وداخِلُ الخاطِرِ ، وما يخفيه الإنسان داخل نفسه . والضَّمِيرُ استعدادٌ نفسي لإدراك الخبيث والطيب من الأعمال والأَقوال والأَفكار ، والتفرقة بينها ، واستحسان الحسن واستقباح القبيح منها . وهو نسبي غير مطلق فليس له مقياس محدد وما يريح ضمير إنسان لا يريح ضمير غيره ، فضمائر أهل الكفر والفسوق والعصيان ، غير ضمائر أهل التقوى والإيمان والإحسان فضمائر عرب الجاهلية كانت تسمح لهم بعبادة الأصنام ووأد البنات وإكراه النساء على البغاء ، وضمائر الشعوب الغربية تسمح لهم بقهر الأمم والممالك الضعيفة والاستيلاء على خيراتها ، ضمائرهم تسمح لهم بإباحة الزنا وشرب الخمر والشذوذ الجنسي والفحش والفجور . والعجيب أنهم يعدون ذلك كله حرية .

يقول زكي مبارك في كتابه " الأخلاق عند الغزالي " ص ١٢٣، ١٢٤ " والحق أن الضمير لا وجود له في ذاته ، وإنما ينشأ من الشرائع الوضعية ، والسماوية حتى أنك لتجد لكل شعب ضمائر تخصه بالذات حسبما توحي التقاليد .. بل الشخص الواحد يختلف ضميره باختلاف سنِّه ، فيكون ضميره في سن العشرين أضعف أو أقوى منه في سن الثلاثين حسبما توجب الظروف " .

وسوف يعود العقاد فيقول بعد " إن فتوح محمد ﷺ إيمان ، وأن قوة محمد ﷺ قوة إيمان ، وأنه ما من سمة لعمله أوضح من هذه السمة ، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل ".

إذا هدى الناس ، واستمتع بالعيش ، خشي أن يحسب المتعة من آماله .

وإذا هدى الناس وكفى ، كانت الهداية هي جملة الآمال وغاية الآمال ، فلينقص حظه من العيش ليكمل حظه وحظ أمته من إيمانه ، وليتم بذلك حسابه لنفسه ، وحسابه عند الله ، وحسابه بين الناس .

وما حساب أولئك جميعاً ؟

حساب رجل هو مانع نفسه في السر والعلانية ، وهو أحق الناس أن يقيم مانعاً للناس .

رجلاً ولا كمثله الرجال .

***